

محاضرات مقياس الأدب الشعبي العربي

السنة الثانية ماستر

الأستاذ: رشيد جقريف

المحاضرة 03: الأمثال الشعبية العربية قبل الإسلام

1/ توطئة: تعد الأمثال المنهل الذي يرام حين دراسة تراث الأمة الشفوي والفكري والثقافي والاجتماعي، فالأمثال عند كل الشعوب مرآة صافية لحياتها تعكس من خلالها أهم عاداتها وتقاليدها وعقائدها وسلوكات أفرادها، وهي ميزان دقيق لمعرفة تلك الشعوب في أخلاقها ورفقيها وانحطاطها وبؤسها ونعيمها وأدبها ولغتها. ولأهمية المثل في حياة العرب ضرب الله الأمثال في كتابه ليدبروا آياته ويفهموا معانيه، كيف لا وهم أرباب الفصاحة والبيان، وقد تطرق كثير ممن اهتموا بالمثل جمعا ودراسة إلى تعريف المثل لذلك عثرنا على طائفة كثيرة من التعاريف سواء عند قدماء علماء اللغة والأدب والبلاغة أو عند المحدثين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذا النوع الأدبي، لكن المتأمل في هذه التعاريف على كثرتها يجدها تكاد تتفق حول خصائص وسمات معينة، ونحن في هذا الصدد سوف نشير إلى بعض تعاريف القدماء للمثل:

مفهوم المثل:

أ- لغة:

المثل -لغة- هو الشبيه والنظير والعبرة والآية في (لسان العرب): «والمثل الحديث نفسه (...) والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله»¹

«ويكون المثل بمعنى العبرة ومنه قوله عز وجل: «فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين» [الزخرف]

¹ ابن منظور، لسان العرب، ج11 (ل) ص 611.

فمعنى السلف أننا جعلناهم متقدمين يتعظ بهم الغابرون، ومعنى قوله ومثلاً أي عبرة يعتبر بها المتأخرون، ويكون المثل بمعنى الآية قال الله تعالى -عز وجل- في صفة عيسى على نبينا عليهما الصلاة والسلام: «وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل» أي آية تدل على نبوته»¹

والمثل هو الشبيه، والنظير، والأمثل هو الأفضل، ومثّل الرجل صار فاضلاً، والطريقة المثلى وهي التي أشبه بالحق، والمثال هو القلب الذي يقدر على مثله، والمثلة هي العقوبة...

ب- اصطلاحاً:

ينقل لنا الزمخشري قوله في الأمثال: «هي قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمتها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت عن القرائح السليمة، والركن البديع إلى ذرابة اللسان وغرابة اللسن، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح، وكنت فأغنت عن الإفصاح»²

أما أبو عبيدة القاسم بن سلام فيقول فيها: «حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح فتجتمع بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه»³

أما إبراهيم النظام فيقول: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة»⁴

وهذا محمد بن عبد ربه في كتابه العقد الفريد قال عن الأمثال «هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها في كل زمان وعلى كل لسان

¹ ابن منظور، لسان العرب، ج11 (ل)، ص 610.

² الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب، ص 2.

³ جلال الدين السيوطي: المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، دار إحياء الكتب الإسلامية، ج1، ص 284.

⁴ محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الجاهلي، دار الكتاب، ص 145.

فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل»¹

2/ نشأة الأمثال العربية:

الإنسان قديم عهد بالأمثال، قدمه في تجربته مع بيئته أرضا ومناخا وشعبا وتعاملا وصحة، ومن الصعب تأريخ ظهور الأمثال عنده ولكننا نستطيع التأكيد أنها ظهرت بعد ظهور المجتمعات البشرية، فالأمثال كاللغة وليدة المجتمع، أو بتعبير أدق، وليدة التجربة الإنسانية في المجتمع، والأمثال العربية وصلت إلينا مع اللفظة العربية نفسها «فحين كانت اللغة العربية تسود الناس سيادة كاملة أو شبه كاملة -أي في عصرها الأول- كانت الأمثال الشعبية كلها تكاد تتبع من معين واحد هو الفصحى. وعبر الزمن ظهرت لهجات عامية إلى جانب الفصحى، فكان ثمة أمثال تقال بالفصحى، وأخرى تؤدي بالعامية، وعموما فإن المثل الشعبي كالمثل الفصيح ينشأ عن تجارب إنسانية فردية أو اجتماعية عميقة الجذور في شعب معين... والبحث عن أصل الأمثال ومنشئها أمر صعب ومعقد، كذلك فإن تحديد عمر المثل ليس بالأمر السهل. ومع ذلك يمكن القول أن هذا المعنى الذي يتضمنه المثل يرجع إلى تلك الفترة المعينة، التي يمكن أن توحى بها الكلمة أو التعبير. أما أن تكون هذه الفترة بالذات هي التي شهدت نشأة هذا المثل، فذلك أمر لا يمكن القطع به»²

ولأن هذه اللغة تميزت خصائصها منذ العصر الجاهلي، وثبتت بسبب عدة عوامل فقد اهتم العرب بتدوين الأمثال.

ولأن معظم الأمثال العربية رويت غفلا عن النسبة إلى قائل معين هذا ما أدى إلى صعوبة تحديد ومن نشأتها ومع هذا كله نستطيع تمييز الجاهلي عن الإسلامي عن المولد.

¹ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج3، ص 63.

² حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، ص 42-43.

وبهذا يظهر أن الأمثال قديمة الوجود، وإذا رويت بعض الأمثال دون معرفة أصحابها فقد أدى ذلك إلى صعوبة تحديد زمن المثل الذي قيل فيه ولكن بالنظر إلى هذه الأمثال من حيث الفكرة والأسلوب نستطيع تمييز زمن نشأتها من خلال إشارات وردت فيها مثل التأثر بالقرآن مثلاً، أو الحديث، أو غلبة لغة الجاهلية وتراكيبها عليها.¹

ويكمل الباحث قائلاً في معرض التأكيد على عراقة الأمثال وأهميتها واشتغال العرب بها وجمعها وتدوينها من خلال هذا النص الذي نقله إلينا في بحثه والذي يقول فيه «ولدينا بعض النصوص القديمة التي تدل على أن العرب في جاهليتهم كانوا يدونون حكمهم وأمثالهم، كما دونوا أشعارهم، فقد روي أن عامر بن الظرب العدواني، وهو حكيم جاهلي معمر مشهور، قال لملك من ملوك حمير في حديث طويل له: ولي كنز علم، لست أعمل إلا به، تركته في الحي مدفوناً، وإن قومي أضناء بي، فاكتب لي سجلاً بجباية الطريق، فيرى قومي طعماً تطيب أنفسهم به عني، فأستخرج كنزي وأرجع إليك. فهذا النص لو صح، يدل على أنهم كانوا يدونون حكمهم وأمثالهم؛ ذلك أننا نتصور أن هذا الكنز من العلم لم يكن إلا حكماً وأمثالاً مدونة فيما كانوا يدونون عليه آنذاك من أشياء»²

وكيف لا نعتقد باهتمام العرب بتدوين أمثالهم وأقوالهم؟ فكما وصلت إلينا روايات أشعارهم وأخبارهم، فكذا وصلت إلينا أمثالهم بداهة بحكم الرواية المشتركة.

وإن كانت الأمثال حقيقة رويت دون معرفة قائلها، فإن الباحث لا يرى الشك في صحة هذه الأمثال من حيث ثبات نقلها، لأن ما تعدد فيه الرواية وقع فيه إشارة على صحة تداوله ونقله، ولكن ذلك يدعم فكرة صعوبة معرفة الزمن الذي قيلت فيه حقيقة، إذ خلت الأمثال من أمارات تدل على زمنها.

وتقسم الأمثال من حيث النظر إلى زمانها، إلى:

¹ أحمد جاسر عبد الله: مجمع الأمثال للميداني دراسة لغوية دلالية، رسالة ماجستير، إشراف عمر الأسعد، جامعة الشرق الأوسط، 2010-2011، ص 30.

² نفس المرجع، ص 30-31.

- أمثال جاهلية: قيلت في العصر الجاهلي.
- أمثال إسلامية: قيلت في عصر الإسلام.
- أمثال مولدة: قيلت بعد عصر الاحتجاج.

وهناك معايير تعرف بها هذه الأمثال، فمن معايير الأمثال الجاهلية:

- 1- نسبتها إلى أناس جاهليين، كلقمان بن عاد، الذي ينسب إليه المثل: رب أخ لك لم تلده أمك.
- 2- نص العلماء على جاهلية هذه الأمثال، أو نسبتها إلى قبائل جاهلية، فمن الأمثال التي نسبت إلى قبيلة عاد، مثل: ألحن من الجرادتين، ومن الأمثال التي نسبت إلى قبيلة طسم: شر يومئها وأغواه لها، ومن الأمثال التي تنسب إلى قبيلة حمير: من دخل ظفار حمّر.
- 3- الحوادث التي قيلت فيها الأمثال وخاصة الأمثال التي قيلت في حرب داحس والغبراء، نحو: أشأم من داحس، وحرب البسوس، نحو: أشأم من البسوس، ويوم حليلة، وحديث الأبرش والزباء.¹

3/ مصادر الأدب الشعبي والأمثال الشعبية العربية:

يشير في هذه القضية "فاروق خورشيد" إلى اتساع مفهوم الأدب الشعبي من جهة، والذي يعتبره ليس مقصوراً عن منطقة شبه الجزيرة العربية، ويشير كذلك إلى إهمال الدارسين لدور الثقافات الأخرى والحضارات والديانات القديمة المجاورة لهذه المنطقة العربية في بلورة وتشكيل الثقافة الشعبية العربية من خلال الترسيبات والتراكمات المتعاقبة «-ونقصد بالأدب الشعبي العربي- فهو مجموعة العطاءات القولية والفنية والفكرية والمجتمعية التي ورثتها الشعوب التي أصبحت تتكلم العربية وتدين بالإسلام، بعد وأثناء الفتوحات الإسلامية، التي امتدت رقعتها الحضارية إلى مساحة ضخمة من العالم القديم، ومدت نفوذها وانتشارها إلى مساحة ضخمة من الزمن

¹ أحمد جاسر عبد الله العبد الله: مجمع الأمثال للميداني دراسة لغوية دلالية، ص 33.

الإنساني على وجه الأرض... ومعنى هذا أن الأدب الشعبي العربي ليس ابن الجزيرة العربية وحدها، وإن كانت أصلا رئيسيا فيه، ولكنه ابن المنطقة الإسلامية الدين العربية اللغة، وأنها كلها بموروثها القديم قد شاركت في صنعه، وحملت إليه كل معطياتها القديمة مع ما حملت إليه من وجودها البشري، وكيانها الجغرافي، ومعطياتها الثقافية والعلمية والاجتماعية الأخرى...»¹

«ونحن لا بد لنا أن نحدد هذا المعنى تحديدا واضحا لكي نفهم السر في امتلاء الأدب الشعبي، بآثار الديانات والفلسفات والعقائد المتشابهة والمتداخلة لأنباء المنطقة كلها، والمرتبطة والمتأثرة بالديانات والفلسفات والعقائد لأنباء البلاد المتاخمة لحدود هذه المنطقة جغرافيا وحضاريا على السواء، وبالتالي فإن دراسة الأدب الشعبي العربي دون ربطه بكل هذه التأثيرات والمعطيات، دراسة ناقصة، إذ هي تحاول أن تبتز تيار الارتباط الدائم بين الشعب -صاحب هذا الأدب- وبين جذوره الإنسانية منذ اللحظة الأولى التي حاول فيها التعبير عن نفسه»²

يسعى فاروق خورشيد من خلال مقالته هذه إلى تفسير سبب اكتناز وتنوع الأدب الشعبي العربي بهذه المحمولات الفلسفية والعقائدية والأسطورية المختلفة في أدبنا العربي منوها بدورها في تشكيل الرصيد التراثي العربي، ومشيرا إلى خطورة فصل وبتز هذه المعطيات أثناء دراسة الأدب الشعبي العربي حيث يعتبر هذه الأسباب جزء مهم وأصيل في تشكيل أدبنا وثقافتنا الشعبية قائلا «ومن هنا امتلأ الأدب الشعبي العربي بالكثير من مخلفات العقائد والفلسفات الثقافات التي عرفها العالم القديم بعامة، والتي عرفتتها الشعوب السامية بخاصة، والتي استطاعت هذه الشعوب أن تتزود بها من الأمم التي جاورتها في مراحل حياتها البدائية الأولى والتي اتصلت بها عن طريق التجارة أو الرحلة، وعن طريق الحرب والغزو، وعن طريق التزاوج والمعايشة»³

¹ فاروق خورشيد: عالم الأدب الشعبي العجيب، دار الشرق، ط1، 1411هـ-1991م، ص 08.

² نفس المرجع، ص 09.

³ نفس المرجع، ص 09.

ليس "فاروق خورشيد" فقط من أشار إلى دور الثقافات والديانات والعقائد والفلسفات المحيطة في تشكيل مادة آدابنا الشعبية بل يشاطره الرأي كل من أحمد رشدي صالح وشوقي عبد الحكيم حيث يرجعان كثير من موادنا الثقافية إلى هذه الأصول القديمة المتشكلة من خلال ترسبات وتراكمات عبر أجيال عديدة وصولاً إلى عصرنا هذا، ومن هنا يظهر تأثير أدبنا الشعبي بهذه المرددات كالاعتقاد بأيام السعود والنحوس، والفأل والتطير (من الغراب والبومة) والكائنات والنباتات وما تشير إليه من خصب وجذب وموت، والكائنات الخرافية على غرار (الغول والعنقاء والسعلات) وأسطورة وادي عبقر وما ترويه من حكايات حول إلهام شياطين الجن لرواده من البشر ملكة الشعر وفصاحة القول وهي أخبار عديدة تنقلها لنا مختلف الفنون القولية كالقصص والحكايات والأمثال الشعبية.

ويشير الباحثان: جمال طاهر وإلياجمال طاهر في موسوعة الأمثال الشعبية إلى أصول ومصادر الأمثال الشعبية العربية على سبيل التمثيل:

1. ما استمد من حكاية أو نكتة شعبية.
2. ما اقتبس عن الفصحى بنصه أو بشيء من التغيير على لغتها.
3. ما استمد من كتب التراث.
4. المستمد من الأغاني الشعبية.
5. ما هو خلاصة تجارب وممارسات عديدة كانت تلجأ إليها بعض الشعوب.
6. أمثال تحمل توصيف دقيق لأعماق النفس البشرية أو التجربة الإنسانية العامة.
7. أمثال مستمدة من خلال التعامل مع شعوب وثقافات أخرى ومنها كتب الديانات الثلاثة ومصادر أخرى.¹

4/ الأمثال الشعبية القديمة وعلاقتها بالقصة أو الحكاية:

¹ جمال طاهر وإلياجمال طاهر: موسوعة الأمثال الشعبية دراسة علمية، ص 28.

أشار غير باحث إلى مدى ارتباط وتعلق المثل مع جنس الحكاية أو القصة، فهناك من يزعم بأبوة وأسبقية القصة للمثل وتولده من خلالها، وهناك من يزعم العكس، ولا تخلوا الكتب القديمة التي اهتمت بالأمثال جمعا ودراسة من الإشارة إلى هذه القضية، أو من إيراد كثير من الأخبار والحكايات التي ترتبط بالأمثال و«يقال إن عبيد بن شرية الجرهمي (نحو 67هـ / نحو 686م) وعلاقة بن كريم الكلابي، وصحار بن عباس العبيدي (نحو 40هـ / نحو 660م) قد ألفوا كتباً في الأمثال إلا أن كتبهم قد فقدت، ولم يبق منها إلا صحائف»¹

ومع هذا فإن الذين جمعوا الأمثال العربية القديمة وألفوا فيها كثر «أما أقدم كتاب ألف في الأمثال ووصل إلينا فهو كتاب المفضل الضبي (168هـ / 784م) ثم تبعه العديد من المؤلفين أمثال ابن السكيت (244هـ / 858م) والجاحظ (255هـ / 869م) وابن قتيبة (276هـ / 889م) وأبي بكر محمد ابن الأنباري (328هـ / 940م) ونفطويه إبراهيم بن محمد بن عرفة (ت 323هـ / 935م) وقد ضاعت مؤلفات بعضهم، ووصلت إلينا مؤلفات بعضهم الآخر، إلا أن الأمثال العربية القديمة جمعت مع ملئى القرن الخامس بالسادس الهجري في كتابين ضخمين هما "مجمع الأمثال" للميداني (518هـ / 1124م) و"المستقصى في أمثال العرب" لمحمود بن عمر الزمخشري (467هـ / 1075م)

ولم يكتف الجامعون بإيراد الأمثال، بل ذيلوا كل مثل بالقصة التي نشأ منها»²

وفي هذا الصدد تشير الباحثة "نبيلة إبراهيم" إلى أن الأمثال العربية القديمة التي روتها كتب الأمثال بأنها تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول وهو تلك الحكم المأثورة عن شعراء العرب وحكمائهم وتحرص كتب الأمثال على أن ترجعها إلى قائلها. فمن ذلك القول المأثور «رضيت من الغنيمة بالإياب» ويذكر كتاب "الفاخر" أن هذا القول يرجع إلى امرئ القيس بن حجر، وهو أول من نطق به في بانيته:

¹ طلال حرب: أولية النص نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ-1999م، ص 142-143.

² نفس المرجع، ص 143.

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

أما النوع الآخر من الأمثال فهو ما يشير إلى حوادث بعينها، ويحتفظ بشواهد لهذه الحوادث، ثم يصبح بعد ذلك أمثالا جارية تنسى مناسبتها الأصلية ومهمة كتب الأمثال هي شرح هذه الأمثال من خلال شرحها لمناسبتها الواقعية»¹

ثم تقوم الباحثة بالتفريق بين النوعين على أساس الانتماء وعدم الانتماء إلى جنس المثل من جهة وعلى أساس الحفظ والتداول من جهة ثانية أو بعبارة أخرى التواتر قائلة «أما النوع الأول فما زلنا نحفظه في ذاكرتنا ونرويه في المناسبات المختلفة وهو ينتمي إلى الأمثال الذهنية، أما النوع الثاني فهو بعيد في جوهره عن المثل الشعبي والذهني، فهو لا يشير إلى خلاصة تجربة من تجارب الحياة، وإنما يشير إلى اتفاق مناسبتين في تفاصيلها، ولهذا السبب فإن هذا النوع قد أصبح تراثا أدبيا لا تحتفظ به سوى الكتب الأدبية القديمة، فما أبعد هذه الأقوال مثل "وافق شن طبقة"، أو "أقتلوني ومالكا" عن حياتنا وتجاربنا التي نعيشها»²

ومن تلك الأمثال المروية في الكتب القديمة والتي ذكر بعضهم أصل الحوادث أو القصص التي نشأت عنها ما يذكره بعضهم عن أصل هذا المثل العربي «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» «وأول من قال ذلك جندب بن العنبر بن تميم بن عمرو وذلك أنه شرب يوما وسعد بن زيد مناة، فأخذ الشراب فيهما، فقال جندب لسعيد يمازحه:

يا سعد لشرب لبن اللقاح وطول النكاح وحسن المزاح، أحب إليك من الكفاح ودعس الرماح
وركض الوقاح

فقال سعد: كذبت والله، إني لأعمل العامل وأنحر البازل وأسكت القائل. ثم تلاسنا وافترقا، ثم إن جندبا خرج يطلب الصيد والقنص، فصادف أمة لبني تميم، فحاول الاعتداء عليها فقاومته وأسرتة وساقته مع غنمها، فمرا بسعد بن زيد مناة، فقال جندب مرتجزا:

¹ نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، ص 183.

² نفس المرجع، ص 183.

أيها المرء الكريم المشكوم انصر أخام ظالما أو مظلوم

فأقبل عليه سعد فأطلقه

فالمثل هنا كما نرى يرتبط بحادثة معينة. وقد تكون هذه الحادثة حقيقية، وقد تكون من اختراع القصاص والرواة، المهم أن هذه الجملة تحوز إعجاب الطبقات الشعبية عبر الأجيال فتردها معجبة. وليس من الضروري أن يعرف كل من يردد المثل القصة التي نشأ منها»¹

وهنا يفند الباحث "طلال حرب" مقالة أن المثل الشعبي ذو تأليف جماعي ولا يصدر إلا عن الجماعة وإن صدر عن الأفراد فلا بد له أن يمر عبر مراحل معينة ثم تتدخل الجماعة في تأليفه ولا يكتب له الانتشار إلا بعدما يتعرض لعدة تحويرات مقصودة تؤدي إلى إكسابها الموافقة والقبول الشعبي وهنا يشير الباحث إلى بعض الأمثال التي نقلتها كتب التراث منسوبة إلى أصحابها قائلا «لكن الكتب الأدبية والتاريخية حفظت لها وقائع عديدة أكدت فيها أن قائل المثل فرد، أن كلمته سارت دون تعديل أو تبديل، فالأمثال: الحديث ذو شجون، وأسعد أم سعيد، وسبق السيف العذل، قالها ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر في حادثة بعينها. والأمثال: حال الجريض دون القريض، وبلغ الحزام الطبيين، والمنايا على الحوايا، قالها عبيد بن الأبرص الشاعر المشهور عندما هم المنذر (نحو 60 ق.هـ/ نحو 564م) بالفتك به في يوم بؤسه، (وأحق الخيل بالركض المعار) هو عجز بيت تمامه

وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخيل بالركض المعار

والذي نراه أن الأمثال متنوعة، منها ما هو من تأليف رجل واحد يتوافق قوله مع تفكير الناس، ويعبر عن شيء ما لديهم فيتداولوه وقد يحملونه معاني إضافية من غير أن يعدلوا لفظه»²

يرى بعضهم أن المثل الشعبي عبارة عن تقطير لقصة أو حكاية ولا يمكن معرفته إلا بمعرفة القصة أو الحكاية التي يعبر المثل عن مضمونها، وهذا الزعم يفرض أنه لكل مثل قصة سابقة

¹ طلال حرب: أولية النص، ص 144-145.

² نفس المرجع، ص 149-150.

عنه نشأ من خلالها المثل أو تولد عنها والمثل عند ذلك يمثل خلاصة وزبدة هذه القصة أو بتعبير أدق العبرة المستفادة منها «وقد حاول المؤلفون في الأمثال أن يربطوا بينها وبين القصص التي عادت إليها، أعني أن يذكروا لكل مثل قصة»¹ وهنا نعود إلى الكتب التي اهتمت بجمع الأمثال وقصصها وأخبار أصحابها ومناسبتها مثل "مجمع الأمثال" لأبي الفضل الميداني والذي يذكر في حواشي كتابه الحكايات والقصص التي نشأت عنها كثير من الأمثال التي ذكرها والتي نتج عنها المثل أول مرة. مثل (جزاء سنمار) و(عاد بخفي حنين) و(أبطأ من فند) و(أخلف من عرقوب) وغيرها لكن كثير من الباحثين يؤكدون على علاقة الأمثال بهذه القصص الأولى، لكنهم في المقابل ينفون أبوة القصة للمثل، وهذا التلي بن الشيخ يعالج هذه القضية بقوله «نحن لا ننفي تأثر المثل بالقصة والعكس صحيح، ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن هذا التأثير لا يعني أبوة القصة أو الحكاية للمثل»²

لذلك فهي كثيرة الأمثال العربية التي وصلتنا والتي لا نملك ولا نعرف لها قصة سابقة عنها مثل قولهم (غيض من فيض) و(خير الأمور أوسطها).

5/ المثل والتجربة الإنسانية:

تعتبر الباحثة "نبيلة إبراهيم" أن السر في استحواذ المثل على هذه الشعبية الكبيرة وعن كثرة تداولنا للأمثال في حياتنا، راجع إلى طبيعة الحياة الإنسانية والتي هي في أصلها عبارة عن مدركات أو أنها عبارة عن محصلة تجارب إنسانية فردية كانت أم جماعية على اختلاف هذه التجارب في حد ذاتها. «فإننا نلاحظ أن هذه المدركات والأحوال تنتمي إلى ما نسميه بالتجربة، وعلى الرغم من أن هذه التجارب يتكرر حدوثها كل يوم فإنها تظل وحدات متنوعة، وتظل كل تجربة تدرك في كل مرة في حد ذاتها، كما أن قيمتها تعيش فيها وحدها، فإذا حاولنا أن نخضع

¹ التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1990، ص 155.

² نفس المرجع، ص 156.

هذه التجارب لأحكام عامة ثابتة، فإننا لا نستطيع أن نفعل ذلك، لأن تجاربنا في الحياة قد تتفق في نتائجها وقد يتناقض بعض هذه النتائج مع بعضها الآخر تماماً»¹

فالأمثال عند كل قوم هي محصول خبرتهم ونتاج تجاربهم الإنسانية والحياتية نتيجة التأمل والتفكير وتقنين الظواهر الاجتماعية والسلوكية يستخلصها العقل من حياة الناس والغاية من هذه الفلسفة هي العبرة التي تتمثل في الاستفادة من تجارب سابقة وهنا يأتي دور المثل الشعبي كتأكيد وترسيخ لتلك التجربة.

«فبعض الأمثال يرددها الشعب لغرض آخر غير الحكمة والخبرة، إلا أننا لا نستطيع إلا أن نقول إن الأمثال التي تعبر عن خبرة أو محصول تجربة كثيرة جداً، ولعلها تضم أكبر عدد من الأمثال ومنها:

- الحرب غشوم (الميداني ج1: ص 206)

- العجز ريبة (الميداني ج2: ص 40)

- الحزم سوء الظن بالناس (الميداني ج1: ص 208)

- الحركة بركة (الميداني ج1: ص 230)

ومنها: استراح من لا عقل له (تمثال الأمثال ص 180)

إياي والمزاح فإنه يجر لقبiche ويورث الضغينة (تمثال الأمثال ص 180)

خير الأمور أوساطها (تمثال الأمثال ص 444)

فهذه الأمثال نتجت من تجارب معينة، وحفظها الشعب وبات يرددها عند مروره بتجارب مشابهة. وقد أودعها خلاصة حكمته بأسلوب موجز بسيط وبلغ.»²

¹ نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 177.

² طلال حرب: أولية النص، ص 148.

وهنا ينفي الباحث "طلال حرب" أن تكون كل الأمثال الشعبية صادرة عن تجارب إنسانية معينة وهو بذلك يعتبر عنصر الخبرة في المثل ليس بالعنصر الأساسي والحاسم مستشهدا ببعض الأمثال القديمة قائلا: «فهنالك أمثال كثيرة تداولها الناس بعد اقتطاعها من سياق معين، لأنها تجاوزت مع هذا الشعب وحملت طاقة التعبير عن خلجات تعتمر في نفسه.

فالمثل (ما وراءك يا عصام) منتزع من قصة لا علاقة لها بتجربة أو خبرة بل بخبر والمثل (غيبض من فيض) لا يحتاج إلى تجربة، بل هو قول عادي يعني قليلا من كثير»¹

6/ خصائص المثل الشعبي:

إن الإشارة إلى بعض خصائص الأمثال الشعبية العربية القديمة يقتضي منا أولا الرجوع إلى عصر هذه الأمثال وإلى لغة هذه الأمثال في حد ذاتها والتي كانت عصرئذ (العصر الجاهلي) وما بعده تتداول بين الناس بلغة فصيحة رغم أنها تتطرق إلى أبسط الأمور والأشياء المتصلة بحياة الشعب والتعبير عن تجاربهم ورصد سلوكياتهم، وهذه الفكرة تطرح قضية إشكالية أخرى تطرق إليها بعض النقاد تتعلق بشعبية الأدب باعتبار موضوعاته لا باعتبار لغته أو طريقة تعبيره، فجل هذه الأمثال التي نقلتها الكتب ووصلت إلينا عبرت عن أدق اهتمامات الناس وشواغلهم حيث لم تكن آنذاك مسألة (اللحن) أو شيوع اللهجات والعاميات أمرا مطروحا بعد وإنما كانت الفصحى هي وسيلة التعبير الوحيدة للناس جميعا.

ومن هذه الخصائص نرى أن الشيوخ هو العنصر الأساسي الوحيد في المثل، ونعني بالشيوخ أن يقبل الشعب لفظة أو جملة أو قولا، ويتداوله بكثرة وتتناقله الأجيال.²

تمتاز الأمثال غالبا بإيقاع واضح من السجع، لعله مقصود لتيسير انتشار المثل وسهولة حفظه وترداده.

- الجهل سهل المورد إلا أنه صعب المصدر.

¹ طلال حرب: أولية النص ص: 147-148.

² نفس المرجع ، ص 147.

- ما الجد إلا غريزة وهي في النفوس عزيزة.

- إذا سمعت بالمنادب فاحضر، وإذا دعيت إلى المآدب فاحذر.

- في الأرض ناس ونويس، ومنهم طاووس وطويس.

- ملاك حسن السميت إثار طول الصمت.

لكن بعض الأمثال لا يمتلك هذا الإيقاع، بل يتألف من جمل عادية كقولهم: أكرم من حاتم، أو أشأم من البسوس.

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن للمثل حياة يحياها وموتا ينتظره وقد يطول، إذ أن بعض الأمثال مات واندثر ولم يبق له وجود على ألسنة الشعب، بل نراه مدفونا بين دفتي كتاب مهجور. فمن يقول اليوم، من عامة الشعب، هذه الأمثلة:

- لأننا أحذر من ضب حرشته

- لا يعدم عائس وصلات

- إن البغات بأرضنا يستتسر وغيرها الكثير.

ولكن أمثالا كثيرة ظلت حية متوهجة تتداولها الأجيال كأنها قيلت بالأمس ومنها: الرفيق قبل الطريق، وخير الأمور أوساطها، ومات حتف أنفه.

وللمثل دور تربوي وتعليمي وتنقيفي لا يستهان به، وهو يغطي حياة الإنسان في أسرته ومجتمعه وتاريخه ومعتقداته، فتهديه إلى الطريق الأنسب وتحتله على البعد عن المساوئ والمهالك.¹

¹ ينظر: طلال حرب، أولية النص، ص 148-149-151-152.

وموجز القول أن الأمثال هي عبارة موجزة يتقبلها الشعب ويتناقلها جيلا بعد جيل بالرواية الشفهية. وهي غالبا خلاصة تجربة وذات بعد فلسفي، وتمتلك أحيانا إيقاعا سهلا يسهل حفظها وتداولها.

كما أنها ليست جميعا متشابهة، بل بينها اختلاف كبير، فمنها ما يحتوي على محسنات لفظية، ومنها ما يحتوي على كلام عادي، وبعضها قصير العبارة وبعضها طويل العبارة، وبعضها يصاغ شعرا في شكل بيت أو بيتين وبعضها يصاغ في قالب كالحكاية.